

حكايات غرام المشايخ تدحض خطاب الانغلاق الديني

القارئ مصطفى إسماعيل عشق فتاة لمدها في شرفة وشيخ الطريقة الشاذلية هام بمديحة يسري



لا يختلف رجال الدين عن بقية البشر في التركيبة الفسيولوجية والبيولوجية، فهم أيضا لديهم عواطف ومشاعر إنسانية تجعلهم يقعون في الحب، وثمة حكايات وشهادات عن الحياة العاطفية لعلماء وأساتذة في الشريعة الإسلامية، تتبعها وجمعها الكاتب المسرحي المصري أيمن الحكيم في كتاب جديد للرد على الأفكار السلفية المنغلقة والمعادية للحب.

مصطفى عبيد
كاتب مصري

لا تضع التعاليم الإسلامية مشاعر البشر على الهامش، ولا تحرم على اتباعها الوقوع في الحب، إلا أن الحب في المجتمعات الإسلامية يأخذ طابعا خاصا، مع ارتباطه الصارم بمفاهيم الحلال والحرام الناشئة عن فتاوى وخطابات وتاويلات مختلفة للنص القرآني.

ورغم طوق التحريم الذي يحيط بالعلاقة العاطفية بين المرأة والرجل في المجتمعات التي يستغل فيها بعض رجال الدين المتشددين مساحة التدين المتجذرة في المسلمين، إلا أن الدين الإسلامي في جوهره متسامح، ولا يعدّ مشاعر الحب شائنا دونيا أو مرفوضا.

ولا يختلف رجال الدين ومشايخه عن بقية البشر في التركيبة الفسيولوجية والبيولوجية، فهم أيضا لديهم عواطف ومشاعر إنسانية تجعلهم ينجذبون إلى المرأة ويهييمون في محبتها، لأن مشاعر الحب عامل جوهري في الطبيعة والفطرة البشرية.

وثمة حكايات تتبّعها وجمعها الكاتب المصري أيمن الحكيم الذي ارتبط بعلاقات مودة بعائلات مشايخ وعلماء دين مُعتدلين عرفهم المصريون على مدى عقود، بعيدا عن خطاب الإسلام السياسي الإقصائي، أو خطاب السلفية الغليظ المناهض لفكر الحب والمتبرأ من الغرام، القائم على النظر إلى المرأة على كونها شرا مستطيرا.

أيمن الحكيم
الحكايات التي جمعتها
تتناقض مع الفكر
السلفي المنطوق

وأصدر الحكيم كتابا يحمل عنوان "غرام المشايخ.. قصص حب رجال الله"، عن دار ابن رشد في القاهرة، يحتوي على شهادات جديدة لأبناء مشايخ معروفين أحبهم الناس، تروي قصص الحب التي عاشوها، وحياتهم العاطفية، وما حملته من آثار على نظراتهم للحياة. وقال الحكيم، "العرب"، إن الحكايات التي جمعها وانفرد بنشرها

في كتابه تتعارض بوضوح مع طرح الخطاب الديني الحالي الذي يهيمن عليه الفكر السلفي، وتقدم صورة للإنسان الطبيعي المتدين.

وأشار إلى أن تلك الحكايات تؤكد أن رجال الدين السابقين، والذين أحبهم الناس وفق منظور التدين الشعبي كانوا أكثر تحضرا، وتفهما لمشاعر الإنسان النبيلة، وأحرص على النظر للمرأة نظرة اهتمام واحترام وشراكة.

وتنطوي تلك الشهادات على إشارة واضحة لتأكيد فكرة بشرية رجال الدين وعدم وجود قداسة لهم، فهؤلاء المشايخ من علماء وأساتذة الشريعة، من مُرتلي القرآن وخطباء المساجد، ولكنهم لا يختلّفون عن غيرهم، ولا يجوز تقديسهم، كما لا يجوز منح عصمة من أي نوع لهم.

وهم مثل غيرهم من البشر يحبون ويعشقون، ويهييمون بنساء ملكت عليهم مشاعرهم، ويسهرون في سبيل ذلك الليل كله، ويكابدون ويتمنون ويبدلون كل جهد في سبيل نجاح علاقاتهم الغرامية.

ولم يكن الحديث عن علاقات الحب مثيرا للجدل في ما مضى، غير أن العقدين الأخيرين شهدا بالتزامن مع صعود التيار السلفي شيوعا لتوجهات معادية لمصطلحات "الحب"، "الغرام"،

"العشق" و"الهيام"، ووصما للمحبين بالجنون واستعلاء على مشاعر الإنسان الطبيعية.

وكان لتوسع وهيمنة الخطاب الانغلاق في أزدراء حكايات الحب والغرام، وحجب جانب كبير من التراث العربي المتضمن لكثير منها تحت لافتة إشاعة الانحلال في المجتمع، ما أدى إلى قيام أصوات عديدة في المجتمعات العربية برفض طباعة ونشر حكايات ألف ليلة وليلة، وكتاب الأغاني، وأشعار عمر بن أبي ربيعة، أو غيرها من الكتب التراثية المعيرة عن الإنسان العربي بطرته وطبيعته الإنسانية.

وأكد الحكيم أن العودة إلى الرومانسية وتقديم حكايات الحب هو الرد العملي القوي على فكر العنف والإرهاب، المتداول عبر وسائل التكنولوجيا الحديثة، فالحب والعشق يُساهمان في كسر أعمدة الفكر الديني المنغلق وما يحتويه من رفض للأخر، وقسوة إنسانية وشيوع للتكفير.

ويمكن أن يسهم الحب وترائه في عالمنا العربي في إضفاء صفات التسامح وتهذيب والانفصام وحضها على القيم النبيلة والأخلاق الكريمة، بل إنه يُغذي شرابين الإبداع لدى رجال الدين ويمحو الصورة القائمة السائدة بتجهما ورجعيتها،

فالهيام يدفع المشايخ إلى كتابة الشعر والنثر الجميل، وخطابات المحبة ولا يابه أيهم بنشر ما كتبه أو كتب إليه تحت لافتة الحب، الذي يعتبرونه من حقوق الإنسان وأمر يتوافق مع طبيعة البشر.

يعرف بعض المشايخ الحب من أول نظرة، فينسجون حبال الوصل مع حبيباتهم اللاتي يتحولن إلى شريكات حياة لهؤلاء المشايخ، فنجد مثلا مُقرئ القرآن الشهير الشيخ مصطفى إسماعيل (1905 - 1978)، واعتبره الموسيقار الراحل محمد عبدالوهاب أجمل أصوات عصره، يرسمي نظره تجاه إحدى الشرفات في احتفال أحد الأعيان بدمياط، شمال القاهرة، فيلج فتاة صغيرة بوجه بريء صاف، فتسكن صورتها قلبه وتسيطر عليه تماما.

العودة إلى الرومانسية

يعرف لاحقا أنها شقيقة مضيئة، فيطلبها للزواج، ويعرض شقيقها عليها الأمر فنتبسم وتوافق في سعادة ورضا لتعيش معه حياة هائلة يلمع خلالها سريعا ويجوز لقب مُقرئ الملك الراحل فاروق فؤاد، ثم يصبح من بعد ذلك مُقرئ الرؤساء.

وكان هذا الحب دافعا لمسحة تسامح ورؤفي عرف بها الرجل طوال تاريخه، حتى أنه الحق بناته بمدرسة الأميركان

كوليدج العصرية، وسمح لهن بلعب التنس، ولم يفرض عليهن الحجاب، ويحتفظ أرشيف الصحافة المصرية بصور له وهو يقف إلى جوار زوجته غير المحجبة في سعادة ورضا.

احترام متبادل

نذكر الحكيم أن ابن الشيخ كشف له سرا خاصا جدا هو أن والده رفض رفضا قاطعا ختان بناته، معتبرا أن ربط تلك العادة القبيحة بالدين، جهل وافتراء، وروى أن والده أرسله إلى ألمانيا لدراسة الهندسة، وعندما عاد متزوجا من ألمانية مسيحية كان يظن أن والده الشيخ الريفي سيثور ويغضب، لكنه ببارك زواجه بتسامح شديد، قائلا "أهم شيء أن تكون تحبها وتحبك".

ويفتح الحب بابا للاحترام المتبادل بين الطرفين يصل بكل طرف إلى تقديم كل ما يقدر عليه لإرضاء الطرف الآخر، وحسبنا أن نقرا في قصة حب وزواج الفتاة المصرية مديحة يسري من الشيخ إبراهيم الرازي شيخ الطريقة الشاذلية الصوفية (1922 - 1976) عن ذلك العطاء غير المتوقع بينهما، والسذي وصل إلى قيام الفتاة الشهيرة بإعلان اعتزالها الفن، وارتداء الحجاب تحت تصور إرضاء الشيخ الصوفي، لكنه يُجابه كل ذلك برفض اعتزالها، مؤكدا أن الدين أعمق من التصورات الشكلية، والله ينظر إلى قلب العبد لا مظهره، وموضوع الحجاب هو قرار خاص بها.

والجميل في هذه القصة أن الحب أولد احتراما شديدا لدى الطرفين، وصل إلى درجة أن الشيخ الرازي قام برد زوجته الأولى تحقيقا لطلب ابنائه، ورأى أن الاحترام بينه وبين زوجته الفتاة يدفعه إلى تخييرها بالبقاء معه أو الانفصال في هدوء، فاخترت الطلاق، لكنهما ظلا على علاقة واحترام بعد الانفصال.

وعرفت الفتاة أن هناك قاعدة لدى شيوخ الصوفية بالآلا تتزوج من زوجته من بعده أحد، فاحترمت تلك القاعدة والتزمت بها، وعندما مرض زارتها عدة مرات، وبعد وفاته وفتت تتلقى فيه العزاء، وظلت تذكره دوريا في موعده كل عام.

ويذكر الاحترام القائم على المحبة بالشيخ رفاعه الطهطاوي (1801 - 1873) عالم الدين المستنير، الذي كان تقديمها في زمانه لدرجة مذهلة، إذ دفعه الحب إلى أن يكتب لمحبوبته في عقد زواجهما مشروطا على نفسه بالآلا يتزوج عليها أو

بتمتع بجارية (كان الرق ساثدا) ويسري ذلك حتى بعد رحيلها. وبالفعل التزم بما تعهد به، وكان طبيعيا أن يكتب الرجل مطالبيا بتعليم البنات، ويدعو للزواج القائم على الحب ويعتبر ذلك من مكارم الأخلاق، بل إن المحب إذا هلك فهو شهيد.

ويقوم الحب نوعا من الثقة الخاصة بين الحبيبين، وتلك الثقة جعلت الشيخ محمد سيد طنطاوي (1928 - 2010) شيخ الأزهر السابق مُمتنا لزوجته التي أحبها منذ كان طالبا وهي ابنة عمه، وتزوجها صغيرا واعتز بذلك وجاهر به، حتى أنه حتى يوما للفنانة صفية العمري أنه اعتاد منذ اليوم الأول لزوجته أن يضع في يد زوجته كل ما يحصل عليه من راتب شهري، لنتولى الإنفاق على البيت وعلى كل شيء آخر وحتى عليه هو، واثقا في حسن تدبيرها.

وعاش الرجل مع ابنة عمه قصة حب طويلة امتدت لما يقرب من خمسين عاما، ودفعه الحزن على فراقها سنة 2007 إلى الانزواء والعزلة عن الناس والتجهم الطويل، ليמות بعدها بأقل من ثلاث سنوات كيدا وحزنا.

الشرك بالله

يرتبط فقدان الأحبة بوهن ومرضى وتعجل للرحيل، مثلما يحكي ابن الشيخ محمود البنا قارئ القرآن الشهير (1929 - 1985) كيف تزوج والده بعد قصة حب قوية، وعاشا معا أربعة عقود، وبعد رحيله كانت الزوجة تصر على السفر بشكل ثابت كل أسبوع

من القاهرة إلى قرية شبرا باص لزيارة قبر زوجها، حتى أن الأبناء كانوا يتعجبون أن تستمر محافظة على هذه العادة الشاقة والصعبة نحو عشر سنوات، حتى لحقت به.

نساء كثيرات كن سندا قويا لأزواجهن نتاج ما جمع بينهم من حب ووثاق. وما يحكيه الرحلة عائشة عبدالرحمن، المعروفة بـ"بنت الشاطئ" (1913 - 1998) كتبت في سيرتها الذاتية كيف وقفت أمام أستاذها أمين الخولي متحدثة عن بحوثها، فوقع في غرامه، وتمنته لذاتها، ثم باحت له بحبها، ووافقت على الزواج منه متقبلة أن تصبح الزوجة الثانية له، وتفاخرت الكاتبة أن تنقل للقراء أشعارها الغرامية في شريك حياتها دون شعور بالحر.

الحب سفينة نوح التي لا خوف على ركبها ولا هم يحزنون

المصرية، وجاب العالم مبدعا في ترتيب القرآن، وتكرر الأمر نفسه مع الشيخ سيد النقشبندى (1920 - 1976) شيخ المنشدين الدينيين، الذي اعتبر زوجته سر حظه وشهرته.

الدين والحب لا يتعارضان

عائشة عبدالرحمن المعروفة ببنت الشاطئ نقلت أشعارها الغرامية للقراء دون حرج
سيد النقشبندى الملقب بشيخ المنشدين الدينيين اعتبر زوجته سر حظه وشهرته



وتبدو الملاحظة الجديرة بالاهتمام أن أحدا من شيوخ التيار السلفي لم يعرض يوما على مستمعيه في الدروس الصحابة المبتوتة عبر شبكات التواصل الاجتماعي أي جوانب شخصية تشير إلى قصة حب تربطه بزوجة ما، والشائع لدى هؤلاء هو التعداد، كأنه أصل من أصول التدين.

ويعتبر شيوخ السلفية هيام رجل ما بامرأة يمثل انحلالا، وبراه البعض نوعا من أنواع الشرك بالله، ويتبرأون منه ويحزنون الناس من الحب، ما يعني أنهم لا يمكن أن يفخروا به، مثلما فعل المشايخ الشعبيون في الماضي أو الزمن المعاصر، وليس أدل من ذلك أن نجد رجال دين عظام لهم مريدون عبر الأزمنة مثل شيخ الصوفية محيي الدين بن عربي لم يابه أن ينقل لنا جانبيا من قصة حبه لفاتة تدعى نظام، وكتب عنها بوله شديد في كتاب "الفتوحات المكية"، مشيرا إلى سحرها وجمالها، وأنها إذا أسهبت أتعبت، وإن أجزت أعجزت، وإن أفصحت أوضحت.

ولا يختلف الأمر عند المرأة التي تهوى وتعشق في التصريح بحبها رغم كونها شيخة أو محسوبة على علماء الدين، لذا نجد مثلا الكاتبة الإسلامية الراحلة عائشة عبدالرحمن، المعروفة بـ"بنت الشاطئ" (1913 - 1998) كتبت في سيرتها الذاتية كيف وقفت أمام أستاذها أمين الخولي متحدثة عن بحوثها، فوقع في غرامه، وتمنته لذاتها، ثم باحت له بحبها، ووافقت على الزواج منه متقبلة أن تصبح الزوجة الثانية له، وتفاخرت الكاتبة أن تنقل للقراء أشعارها الغرامية في شريك حياتها دون شعور بالحر.



كانت كما يذكر المؤلف جالبة السعد له، إذ علا نجمه، وطبقت شهرته الأفاق وصار له إطلال دائم في الإذاعة



المشاعر العاطفية جزء من سلطة الطبيعة